مؤتمر المستشرقين الدولي الثالث والعشرون

بقلم الاب ا. عبده خليفه اليسوعي

عقب انتهاء مؤتمر المستشرقين الدولي الثاني والعشرين الذي انعقد في اسطنبول سنة ١٩٥١ ، تقرر عقد المؤتمر التالي في مدينة كمبريدج الجامعية المتسعة الارجاء لاستيعاب الذين دعتهم الجمعية الملكية الاسيوية من الباحثين في العلوم المشرقية كدراسة عصور ما قبل التاريخ والدينين المسيحي والاسلامي .

وكان لا بدّ من مدينة كمبريدج الهادئة الصافية الاديم القائمة في قلب اخضرار سندسي ويشقها نهر كام « Cam » الكبير من ان تستأنف في الحادي والعشرين من آب الماضي لا حياتها فقط بل من ان تعود اشدّ صخباً واعظم حركة لان عدد المشتركين بالمؤتمر كان بين تسعمئة او الف شخص .

وشهدنا في هذه المدينة الجامعية اوروبيين واميركيين واسيويين كانت بينهم البعثة الروسية التي لم يكن عددها بالقليل ، كما رأينا بعثتي الشرق الاقصى وافريقية . وسمعنا لغات عديدة ووقع منا النظر — الى جانب اللحى البيضاء — على فتيان وشبان من المستشرقين الذين اثاروا اهتمامنا بحيويتهم واتساع نظرهم بعد ان جاءوا يشقّون طرقات جديدة في الاستشراق او يتممون التقاليد السابقة في اتجاهها نفسه .

ضمت جلسة افتتاح المؤتمر التي انعقدت في مجلس شيوخ مدينة كمبريدج جميع الموفدين اليه ، وبعد ان سلّم رئيس المؤتمر السابق السيد ز. ف. توكان (Z. V. Togan) صلاحياته الى خلفه السيد رالف تُرنر (Ralph Turner) رحّب الرئيس بجميع العلماء الذين اقبلوا الى المؤتمر ليستأنفوا اتصالاتهم وينجزوا معاً نتيجة اعمالهم. وما كان من رئيس البعثة الروسية الّا ان وقف وخطب بالجمهور ، دالّاً بذلك على وجود روسية وبعثتها في المؤتمر مما ادهش الانكليز ، اذ انهم لم يكونوا بانتظارهم . وكان مسك الختام لجلالة الملكة اذ تُليت على الحاضرين برقية ملوكية تهنئهم بالمجيء وتتمنى لهم النجاح .

واذ كان قد مرّ ثلاث سنوات على انعقاد المؤتمر السادس كان لا بدّ من تجديد اواصر الصداقة والعمل على تعزيزها طوال مدّة المؤتمر الحالي وذلك بسبب تقسيم رجاله الى فرق فرق مؤلفة كلّ منها من مئتين او ثلاثمئة شخص، اقامت كلّ منها في كلية من كليات كمبريدج بحيث اتيح لنا ان يرى بعضنا بعضاً في معظم اوقاتنا نتحدّث في شتى الموضوعات التي هي من اختصاص احدهم او غيره. فكنا ننتقل من الدراسة اللغوية الى الصوفية الاسلامية فإلى مختلف الفروع المتصلة ببلاد الحبشة في تطوّرها فالى الادب الاسلامي الخ ..

ولمّا كان اليوم التالي لافتتاح المؤتمر يوم احد وهو عطلة، هرع المؤتمرون الى التعرّف الى المدينة قبل ان يضطرّوا للانشغال باجتماعاتهم. فكنا نراهم يطوفون شوارعها محدّقين بكلّ جديد فيها. فزاروا كنائسها القديمة التي حوّلها البروتستنت الى معابد كما زاروا متاحف كمبريدج ومفاخرها من المعاهد. ويوم الاثنين التالي، وعند الساعة الثامنة والدقيقة الثلاثين، بدأت اجتماعات المؤتمر العملية لتستمرّ حتى يوم الجمعة.

ومن اشهر اسماء الذين كانوا في فرع دراسة الآثار المصرية القديمة اسم ب. مونته (P. Montet) وكونتز (C. Kuentz) وا. بدوي وب. ه. ستريكر (B. H. Stricker) وج. لكلان (J. Leclant) الذين استردّت مصر القديمة حياتها في محاضراتهم، فنرى كيف تعيد الكتابات الاثرية الحياة لنا. قديم سكتت عنه الايام الغابرة فيرقص امامك ضاحكاً فتياً.

ودراسة معجمية الالفاظ احتفظ بها لفرقة الدراسات السامية التي كانت ضماناً لنجاحها شهرة البرايت (Albright) ودوفيليه (Dauvillier) (الذي لم يستطع حضور المؤتمر) والعالمين ريكمنس (Rykmans) وميلاس فيليكروزا وكريمر (Kreamer) (وهو المستشرق الفتي المفعم حيوية واقتداراً) وه. فلايش (H. Fleisch) ولسلو (Leslau) (الذي لم يتمكن من الحضور) وموسكاتي. ولقد اجتذب هذا الفرع من الدراسات عدداً كبيراً اليه فكانت مناقشاته متتالية. وكنا نشهد مبلغ الحماسة في صدور المستشرقين لدراسة تأصيل الالفاظ العربية سواء أكان ذلك من حيث تطوّر المباني ام من حيث المقارنة التي ينبغي اقامتها بين مختلف اللغات السامية. فعرض الاستاذ كريمر المُعنَى بدراسة

شتى معجميات الالفاظ دراسة على مجموعها سيطلع على ملخصها قراء الشرق في اعدادها القريبة . اما دراسات المستشرقين ريكمنس ذوي الاطلاع الواسع الدقيق لنقوش سابا الحجرية القديمة المكتشفة سنة ١٩٥١ — ١٩٥٢ فكان لها وقع شديد في نفوسنا . وتكلم المستشرق هـ. فليش على لهجة معاصر بيت الدين اللبنانية .

ولقد دلّت جميع هذه الدراسات على رغبة شديدة في التنقيب .

اما الفريق الذي عُني بدراسة الاثار الآشورية القديمة ودارسي ايران وارمينيا فقد كان اقبال المستمعين عظيماً عليهم بسبب شهرة الاختصاصيين شيفر (Schaefer) ومينورسكي (Minorski) واحمد اتش (A. Ates) .

وجعلت البعثة السوفياتية وجهة لفرع الدراسات الالتائية (لغة سكان سلسلة جبال التاي في آسيا الوسطى) بيد اننا كنا نحسّ التحيّز في مآتيهم لانهم اوّلوا التاريخ وفق ارائهم وبحسب التطوّر التاريخي الديالكتيكي . وقد برهنوا عن تعصّب فكري اذ كان في رأيهم ان على التاريخ والحوادث التاريخية ان ترضخ لتأويلهم . فلم ينجحوا . اما بحوثهم فكانت باللغة الروسية ومع ذلك كان بالاستطاعة متابعة إفكارها الرئيسية في ترجماتها الانكليزية التي وزعت بسخاء على المؤتمرين الذين رغبوا في الاطلاع عليها . اما ما تصدوا اليه من معلومات فكان بادي التحيّز وقائماً ، كما قدمنا ، على اعتباطية فلسفية ، مما جعل معلوماتهم تفقد شيئاً من قيمتها العلمية .

اما فرع دراسات اللغة التركية القديمة فكانت شهرة المستشرقين تشفر (Teaschner) وتوكان (Togan) ودُني (Deny) ضماناً حقيقياً لانجاحها . اما الموضوعات التي عُولجت في هذا الفرع فكانت تاريخية بوجه اخصّ . بينما فرعا الهند والشرق الاقصى تناولا البحوث التاريخية وعلم الآثار والدين والرياضيات وكثيراً من الموضوعات الاخرى . وكان الحاضرون يدوّنون الاسترسال في المناقشات والافادة من اشباعها اذ اثيرت فيها القضايا والعلاقات والصلات الثقافية الرئيسية حول تطوّر الفكر الانساني فتناولت السنسكريتية وبوذا وامر الخلاص والتجدّد في الادب الياباني الخ. وهي مظاهر مختلفة تقتضي بها كفاءة مشتركة وبحوث دقيقة الى نتيجة حسنة .

وطوال مدة المؤتمر قد لفت انتباهنا الفرع الاسلامي الذي ساهمنا فيه وكان منقسما الى قسمين : الاول للعناية بالادب اجمالاً والثاني بالتاريخ والدين . اما الاعمال جميعا فسادها النظام واما المباحثات فكانت مثمرة .

والذي افضى الى نجاح هذا الفرع نجاحاً باهراً هو شهرة الاختصاصيين خلف الله (Khalafallah) وكوبنتز وصلاح المنجد وتيراس وثبيت (Wiet) وروزنتال (Rosenthol) وغبريالي (Gabrieli) وفون كرنبوم (Von Grunebaum) وماسه (Massé) وماسينيون وكارده (Gardet) وسارنلي (Sarnelli) وزياده وادريس وبلسنر (Plessner) . ولا يفوتنا هنا ان نشير الى عدد المستشرقين الالمان الذين كانوا محطاً للانظار لنذكر من بينهم ديتريش (Dietrich) وبارت (Paret) وغيرهما . اما الموضوعات التي عالجوها فتناولت جميع فروع العلوم الاسلامية ، كعلم الاثار وقصر الحمراء في غرناطة والشعر وتصوف ابن العربي والحاسبي ودراسة اللهجات وتاريخ المدن والاقوام والفن . وعُني المستشرق روزنتال ببحث صلات التاريخ بالفلسفة عند ابن خلدون . وعالج المستشرق ماسينيون موضوع العاطفة الدينية بالاستناد الى دور فاطمة في الشيعة .

ولولا ادخال احدهم بعض النيات السياسية في النطاق العلمي لانتظمت جميع المباحث على خيرما يرام . فقد اراد بعضهم ان يتناول بالبحث تطور مفهوم « الاسلام » مقتصراً على الكلام من ناحية تأصيل الالفاظ جازماً بحكم خاطئ سلفاً ان التأصيل لم يكن له معنى ولا قيمة دينية في فكرة محمد . فاحتدم الجدل وتعقدت المناقشات . اما الخطيب الذي كان يهودياً فأصر خطاءً على وجهة نظره مما دعاني الى استئناف النظر في الامر مع المحاضر لكنه رد علي محاضرته بدون ان يضيف اليها اصلاحاً ولو جزئياً .

ولم تكن المناقشة التي عقبت محاضرة السيد كارده باقل احتداماً . اما الانسة دالفرني (D'Alverny) فلم تجد صعوبة في ايضاحها ان لغة المحاضرة قد ضلت منحرفة عن الطريق السوي اذ ان المحاضر استعمل لغة بعيدة عن كلام فيلسوف من فلاسفة العصور الوسطى وقد بات يجزم بان ابن سينا كان من العقليين الذين لم تتأثر نفسهم بوجهة نظر انسانية ودينية .

وتفادياً عن التطويل اذا شئنا ان نتصدى لذكر شتى ضروب الجدل اكتفينا

بالاشارة الى فكرة ذلك الاجتماع العامة الذي التقى فيه عدد كبير من اولي الكفاءات الثقات .

وختاماً نرانا لا مندوحة لنا عن قول كلمة حول الفرعين اللذين عنيا بامر الشرق المسيحي وافريقيا لاشير الى محاضرة السيدة ن. ف. بيكولفسكايا (N. V. Pigulevskaya) التي حدثتنا عن فقرات من الزبور في اليونانية السريانية والعربية حديثاً شيقاً جداً وان تطلب مزيداً من التنقيب لتقرير قيمته وتحديد فحواه .

فماذا نستنتج ؟

ان الدراسات الاسلامية الشرقية عامة هي بتقدم مستمر . اما الحقول المدونة والحقول التي ما برحت تفتقر الى التدوين فما زالت واسعة جداً اتساع تماً نرغب معه بان يتفرغ عدد كبير من الاختصاصيين لسد هذه الثلمة .

واذا قصرنا كلامنا على النطاق الاسلامي وحده فلان ثمة مخطوطات عديدة ومؤلفات لكبار العلماء ما برحت مفقودة ولم تنشره لكننا متى رأينا علم الهيآت الاشعري يصدر ومعه تفسير مكين وعرفنا ان هناك مؤلفات اخرى اخذ المستشرقون يتأهبون لاصدارها فمن الواضح اننا سنكون شديدي الاغتباط بمجرد تفكيرنا بان ميدان المجهول يتضاءل في هذه النواحي . ومع ذلك فان هذا لن يكفي وانا من الواجب ان نقوى على ولوج بعض النقاط التي ما برحت بعيدة المنال لنخرج بثروة منها الثروات التي تخول الباحثين ان يطلعوا غيرهم على جوهر المعضلات الحقيقية ، اذ علينا ان نؤمن مسبقاً بفائدة مثل هذه المآتي وان لم يكن الا لتقدم الفكر الانساني .